التَّكْمِيْلُ وَالإِيْضَاحُ

لِـمَقَاصِدِ كِتَابِ ابْنِ الصَّلَاح

(مَعْرِفَةُ أَنْوَاعِ عِلْمِ الـحَدِيثِ)

تأليف

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهم لك الحمدُ ، أنت وَلِيُّ النِّعَمِ ومُسْدِيها ، ومُعيدُها بعد أن كنتَ مُبْدِيها . خلقتَ فأبدعتَ ، وأنعمتَ فأجزلت . ودللتنا بخلقك عليك ، وهديتنا بجودك إليك.

فاللهم لك الحمدُ كلُّه ، لا إله إلا أنت ، ولا ربَّ سواك .

ثم اللهم لك الحمدُ مرارًا وتكرارا ، آمادًا وأعصارا ، وليلا ونهارا ، خالدًا أزليا ، باقيا سرمديًّا . تُعظِّمه بركاتُك ، وتزكّيه رحماتُك ، وتتقبّله نظراتُك .

اللهم لك الحمدُ ، يزيد بالتكرار فَرْضُها ، ويحلو بالفرض تكرارها ، فلا نحمدك إلا وحَمِدتْك المحامدُ نفسُها ، فلك المحامدُ كلها ، منك بدأت وإليك تعود ، لا إله إلا أنت .

فاللهم لك الحمدُ ، تنجلي بها عنا غاشياتُ الذنوب والسيّئات ، وتنكشف بها عن بصائرنا حُجُبُ الغفلات ، وتستقوي بها أنفسُنا الضعيفات . فبها نسمو لمناجاتك ، وبها نستمطر بركاتك ، وبها نقف على عتباتك ، وبها نرفل في نعيم حبك ، ونوشك أن نَلِجَ بِساطَ قُربك ، ونستعذب قَدَرَك وقضاءك ، ولا نرى في العطاءات إلا عطاءك ، ولا في النعماء إلا نعماءك ، فتشتاق قلوبُنا لقاءك ؛ فلأنت أحبُّ إلينا من كل موجود يا مُوجِدَ الوجود ، وأنت أجملُ مشهودٍ يا واحد الغيب والشُّهود .

فاللهم لك الحمدُ ، متى أنتهي منها لأبدأ ، وأنّىٰ يكون لِبَدْءِ ساحلها مَنْشأ ، حتى يكونَ لمنتهاها مَرْفأ . وحتّامَ تظنُّ ظَمَـاكَ منها يرتوي ، وأنت لا ترتوي منها إلا بما يُظمي . فارْتِواؤك منها ظمأٌ إليها ، وظمأُك إليها ارتواءٌ عما سواها : فالحمد لك اللهم .

ثم اللهم لك الحمدُ عَدَدَ خلقِك ، اللهم لك الحمدُ مدادَ كلماتِك ، اللهم لك الحمد زِنةَ عَرْشِك ، اللهم لك الحمد رِضا نَفْسِك .

اللهم لك الحمد لن ينتهي بها اللهَج ، ما دامت الـمُهَج . فأنْطِقِ اللهم بالحمد جَناني ،

إن كَلَّ عنه لساني . واملأ صحائفي بالحمد لك وحدك ، ومتِّعني بامتلاء الامتنان من فيوض نعمائك، وبانكسار الخجل من عجز شكري ، بل من كُفران سَعْيِي ، ليكون الحمدُ لي خيرَ ملجأ، فأستجير بالحمد لك ، وأستعيذ بالمحمود ، وأستغيث بك في ذُلّ عجز الشاكر الحامد ، وأفرُّ منك إليك في قَيد المقرِّ بأن حمده في تقصيره كُفران جاحد . يرجو من ربه الكريم أن يقبله ، يرجوه أن يملأ من كريم يديه ما أجحف فيه عبدُه المقصِّر ، ويطمعُ أن تعطيه بمحامدك لا بمحامده ، فاللهم لك الحمد .

اللهم لك الحمد كلما قُلتُ «اللهم لك الحمد» أو سَكَتُّ ، اللهم لك الحمد في كل وقت وبين الوقت والوقت . اللهم لك الحمد حمدا يعلو فلا يستقر إلا في يديك ، ينمو في يديك ، حتى يقصدني يوم العرض عليك ، ليقول : لبيك وسعديك ، هذا يوم نجاتك بما باركه الله لك من المحامد ، وأسبغ عليك من جميل الستر وكريم العفو ، هذا يوم الحمد ، ينجو فيه الحامدون !!

فاللهم لك الحمد ، لا أقول أُنهي بها تقديمي ، إلا ونازعتني في كَتْبِه يميني ، وعلمتُ أني أبخس حقَّ الحمد بالانتهاء ، وأصدف عما لا يجوز بغيره انشغال ، فأعود إلى حمدك منكسرَ الظهر أرجو به الانجبار ، يا جَبّارَ المنكسرين !

فاللهم لك الحمد ، اقبل عذري ، وامحُ ذنبي ، وبارك فيما باركته من حمدي ، حتى ألقاك وأنت عني راضٍ ، ولذنبي غافر ، ولقبيح فعلي ساتر !

واللهم لك الحمد ، أرسلتَ إلينا خير رسلك ، وإمام أنبيائك ، وخيرتك من خلقك !

واللهم لك الحمد ، جعلت صلاتنا عليه واحدةً صلاتَك علينا ورحماتِك عشرًا ، فاللهم لك الحمد .

فاللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاةً تُباركها بحبك إياه ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد صلاةً يُعظِّمها رَفْعُك ذِكْرَاه ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد عددَ ما قضيتَ وستقضي في الأزل ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد صلاةً تمتد فوق كل مدًى وأجل ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد كما تحب وترضى ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد صلاةً تنفعنا بها في الآخرة والأولى .

فاللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

أما بعد : فهذا هو شرحي لكتاب ابن الصلاح في علوم الحديث ، والذي كان في أصله دروسًا في أحد جوامع مكة المكرمة ، وهي درس أسبوعي (يوم في الأسبوع)، بدأ في يوم الأحد ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٤١٩هـ ، وانتهيتُ من الشرح بعد نحو خمس سنوات : في يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ .

وقد نُسخ الدرس منذ انتهيتُ منه ، لكنه كان نسخًا تنتابه بعض النواقص ، منها أنه نسخٌ حرفيٌّ ، لم يُراعِ فَرْقَ ما بين الدرس الشفهي والنصِّ المكتوب . ولذلك امتنعتُ عن إخراجه ونشره طوال ثمانية عشر عامًا ماضية . أؤجِّلُ موضوع إخراجه ، انشغالا عن غيره به . رغم علمي بأهميته ، وبحاجة طلبة العلم إليه ، وبكثرة السؤال عنه ؛ إذ العمل الجديد أحب إليّ من تكرار المعاد ، كما كان الإمام الزهري (ت١٢٥هـ) يقول : «نقل الصخر أهون من تكرار الحديث».

حتى هيّأ الله دار فارس لبعث التراث وتأصيل الفكر(وفق الله القائمين عليها ، وعلى رأسهم : الأخوان الكريمان : محمد غريب الفودري ، وعلي حسن العنزي) إلى السعي إلى تحسين صياغة الكتاب بما يهيئه كنصٍّ مكتوب ، مع إضافة بعض الخدمات الأخرى ، كتوثيق المنقولات وعزوها إلى مصادرها .

فلما بدأ العمل على الكتاب ، وأُوكِلَتْ تهيئةُ الكتاب إلى الدكتور الفاضل أبي يعلى أحمد بن إبراهيم بن محمد الباز (وفقه الله تعالى)، فأحسن العملَ قدرَ ما استطاع (جزاه الله خيرًا)، وبدأ بإرسال ملازم العمل إليّ لمراجعتها ، بدا لي أن أعيد كتابة بعض المباحث كتابةً جديدةً تمامًا، كما سيتضح من مراجعة الدروس الصوتية وهذا الشرح المكتوب ، فكتبتُ بعض المباحث من جديد ، متوسِّعا في البيان والنقاش وإبراز الحجج، حتى تجاوزت الإضافات ما يزيد على خمسين ومائتي صفحة من كتابتي وصياغتي الجديدة .

ومع أن القارئ سيلحظ بسبب ذلك فرقًا واضحًا في المضمون والصياغة بين موضوع وآخر في هذا الشرح[1]، يصل حدَّ الاختلاف النوعي الكبير بين القطعة التي أعيد كتابتها متوسِّعا في العرض والنقاش والقِطَعِ الأخرى التي لم أُعد كتابتها مكتفيا بإعادة تهيئتها صِياغِيًّا وعزوًا ونحو ذلك . ورغم أن هذا التباين في المستوى قد يراه البعض غيرَ مناسب ؛ إلا أني رأيتُ أنه ما دام في صالح زيادة الفائدة وتوسيع النظر وتدقيق العمل وتجويده لم أجد هناك ما يدعو إلى الامتناع منه .

وأرجو أن تُتاح لي فرصة إعادة الصياغة في مرات كثيرة ، كلما تيسّر لي ذلك . وإلا ففيما سبق في الشرح الصوتي ومنسوخه وتَـهْيِيئِهِ كفايةٌ بإذن الله تعالى .

ألا وإن لهذا الشرح معي قصةٌ من قصص العشق والشغف ، وله من تقادير الله تعالى معي ما أعجز عن أداء حق حمده لله تعالى ، فقد هيّأ الله تعالى لي في شرحه – بفضله ومنّه – :

- زمنًا مناسبًا .
- وظروفًا مواتية .
- وانشغالا به عن غيره ، وإقبالا تامًّا مني إليه .
- وتَوفُّرَ الهمة له ، حتى كان شغلي الشاغل .
- ونشاطَ القوةِ مع حماسةِ الجِدّة .

بل لا أبالغ إن قلتُ : إن حالي مع هذا الشرح يشبه قصص الحب والغرام !

لقد بدأتُ هذا الشرح في أوج النهضة الحديثية المعاصرة ، وفي زمن رواج سوق العناية بعلوم الحديث ، والتي بدأت منذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري (ما بعد سنة ١٤٠٠هـ)،

(١) من أمثلة ذلك في هذا المجلد من مباحث الحديث الصحيح :
١- مسألة القِسْمة الثلاثية : انقسام الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف .
٢- ومسألة منع أهل الأعصار المتأخرة من الاستقلال بالحكم على الحديث .
٣- ومسألة تلقي الصحيحين بالقبول .

واستمرت في قوتها إلى نحو سنة ١٤٢٦هـ ، إلى أن بدأت بالفتور بعد ذلك تدريجيا . ويعرف ذلك من عاصر تلك الفترات وعايشها من طلاب العلم وشُداته ، من أقراني وغيرهم .

لقد كانت بعضُ دروس العلم المتخصصة جدًّا يحضرها المئات من الطلاب ، راغبين غير ملزمين في المساجد والدورات التعليمية ، متحمسين للفائدة ، متعطّشين للعلم ، يناقشون ويسألون ويستشكلون .

فلما طَلَبتْ مني إحدى الجهات التي كانت تنظم الدروس العلمية حينها في مكة المكرمة أن أقيم درسًا في علوم الحديث ، وكنت قد أقمت عدة دروس سابقة في شرح بعض الكتب كـ(النزهة) للحافظ ابن حجر و(الموقظة) للإمام الذهبي وغيرها كثير من الدروس والمحاضرات ، فضلا عن دروسي الرسمية في جامعة أم القرى، فوقع اختياري حينئذ على كتاب (ابن الصلاح)، وكان كتابًا جليلا مهابًا ، يهرب الأساتذة من التعرض له بالشرح والتدريس . وكنت أرى أنه حجر الأساس لعلم الحديث ، وأنه قمة العطاء الحديثي لدى المتأخرين من علماء الحديث . كما أني لا أعلم له شرحًا تامًّا من أوله إلى آخره ، وإن وُجدت تعاليقُ ونُكتٌ على مواضع منه ، ومع أهمية تلك التعاليق والنكات إلا أنها هي نفسها تحتاج نقاشا وتحريرًا ، فضلا عن كونها لا تشرحه جميعَه .

كما أني كنت قد اتخذتُ لنفسي خطةً منهجية في الدرس الحديثي ، عليها أقمت رسالتي للماجستير (المرسل الخفي وعلاقته بالتدليس : دراسة نظرية تطبيقية على مرويات الحسن البصري عن شيوخه)، وهي الرسالة التي كنت قد بدأتها سنة ١٤٠٩هـ وانتهيت منها سنة ١٤١٤هـ. وتلك الخطة هي مقدمة رسالتي للماجستير ، وكانت قد اتضحت لي معالمها منذ سنة ١٤١٠ هـ ، ولذلك أقمتُ رسالتي عليها ، وقدمتها بها ، وهي أصل كتابي المطبوع بعد ذلك سنة (١٤١٦هـ) باسم (المنهج المقترح لفهم المصطلح : دراسة تاريخية تأصيلية لمصطلح الحديث "وهي مقدمة تمهيدية لكتابي : المرسل الخفي وعلاقته بالتدليس")[١].

---

(١) هذا هو العنوان الكامل الذي طُبع به كتابي سنة ١٤١٦هـ في دار الهجرة .

وما إن صدر كتابي المذكور (المنهج المقترح) حتى ثارت حوله نقاشات ساخنة ، بل وصلت حرارة تلك النقاشات أن تحمس بعضُهم لكتابة ردودٍ عليه ، في كُتبٍ ومقالات ، هي الآن أصبحت تاريخا منسيا ، لكنها في يومها كانت موضوعًا تعلو فيه أصواتُ الجدل وتطول أوقات الأخذ والردّ .

فلما أن افتتحتُ درسي في شرح كتاب ابن الصلاح، وأردته أن يكون شرحًا أُبيّنُ فيه حقيقةَ المنهج الذي انتهجتُه لنفسي في درسي الحديثي ، بدأته متلطِّفًا بطلبة العلم ، متدرِّجًا في إبداء اجتهاداتي ، مراعيًا أن لا أَصْدِمَ الأسلوبَ التقليديَّ الجامدَ الذي اعْتادَهُ غالبُهم ، لكي لا أُنفِّرَهم ، منتبهًا لرواسب الدعاية الظالمة التي وُصف بها منهجي لدى بعضهم ، فلا أريد أن أكون عونا للبغي على العلم، ولا أن أتسرّع الإصلاحَ المنهجيَّ قبل صلابة العود لدى المتَلَقِّين ! حتى ربما تجاوزتُ نقدًا أو تخطيئًا بلا تنويه ، اكتفاءً بغيره رأيتُه أولى منه بالذِّكْرِ ، أو أحرى بالفهم عني . خاصة في الدروس الأولى من شرح كتاب ابن الصلاح ، في مبحثَي الحديث (الصحيح) و(الحسن) . ثم بدأت تدريجيًّا أَذكُرُ ما كنتُ أؤخّر فيه البيان ، وأصرِّحُ بما كان تَلَجْلَجَ فيه اللسان!

ولم أفعل ذلك نقصَ جُرأة ، ولا قلّةَ شجاعةٍ أدبية (علم الله)، وإنما حرصًا على حسن السياسة والتدبير ، ورفقًا بالفهوم الضعيفة أن أحمّلها فوق طاقتها !!

ولا أشك أن بعض من يقرأ هذا الكلام اليوم ، ممن لم يدرك تلك الفترة الزمنية ، أو كان بعيدًا عن ذلك الوسط العلمي = سيظن أني أبالغ ، ولا يكاد يصدّق أن تلك المعركة التعليمية قد وقعت فعلا . لكنني أَذكُرُ هذا الماضي القريب اليومَ وكثيرٌ ممن عاصره وعايشه وعرفه ما زالوا أحياء ، وكُتب الردود ومقالاته ما زالت شاهدةً عليه موجودة ، بل بعض أصحاب تلك الردود ما زالوا يعيشون أجواء تلك المعارك حتى اليوم ، ما زالوا في متحفها الفكري محبوسين ، مع أنها بالنسبة لي قد أصبحت تاريخًا ، ربما ضحكتُ من ذكراه !!

في مثل تلك الأجواء العلمية ، والواقع المعرفي ، والاهتمامات الفكرية = شرعتُ في شرح ابن الصلاح !! فكانت الأجواء والاهتمامات وقودًا من الحماس ، وزادًا على البذل ، وشعورًا

بالمسؤولية ، وإحساسًا بأنني في معركة بين العلم الحقيقي والعلم الزائف . وكنتُ امرأً جريئًا ، أصدع بقناعتي إلى آخر حدٍّ يسمح به إصلاحُ الصدع ، في ظني . كما كنتُ واثقًا مما يوصلني إليه البحثُ العلمي (بتوفيق الله تعالى)، لا يهمني بعد ظهور الدليل ، واتضاحِ لوازم الصواب من الإثمار المعرفي المتين ، وتَبيُّنِ لوازم الخطأ من ثمار الباطل وتخليط الجهل = أني خالفتُ مَن خالفتُ من أهل العلم ، كائنًا من كان ! مع ما أُكنّه لأهل العلم من عظيم الإجلال وتمام المهابة والإكبار. ولقد كنت أقول للطلاب منذ ذلك الزمن – وقبله وبعده – : علم الله أني ما استفدتُ فائدة ، ولا تعلمتُ علما ، ولا حررتُ فكرة ؛ إلا والفضل يعود – بعد فضل الله تعالى ومنّته – إلى إجلالي التامّ لأئمة الدين وتعظيمهم وتهيّب كلامهم والتعمق في فهمهم وكمال إحسان الظن بهم وإساءة الظن في فهمي وجهلي ! لكن ماذا أعمل إن دلني أحدُهم على خطأ قرينه ؟! أو قادني المنهجُ العلميُّ الرصينُ الذي اختطّه أحدُهم إلى خطئه هو أو خطأ أخيه ؟!

إنه المنهج العلمي الذي يعظّم العلماءَ ؛ بقدر ما لديهم من العلم ، فإن خالف واحدٌ منهم واجب العلم ، كان حقُّ العلم مقدّمًا عليه ، مع حفظ مكانته وإجلال إحسانه وتعظيم إتقانه والاعتراف بمكانته في العلم ، فيأبى الله الحقُّ المبينُ أن يطمس الخطأُ القليل الصوابَ الكثيرَ الجليل ، وأن تُخفي حصواتُ الزلّاتِ جبالَ الإتقان الراسيات.

ولقد بدأت تلك الدروس قبل جيل برامج الحاسوب ، الذي ما عاد يعرف جيلُ الشباب سواها . بدأت تلك الدروس والحاسوب كان جهازًا من بابةِ الخيال العلمي عند عامة طلاب العلوم الشرعية ، بيننا وبينه حواجز عديدة . فكانت عُدّتنا في العلم سعةَ الاطلاع ، وجَرْدَ المطوّلات ، وتلخيصَ المقررات ، ودراسةَ المناهج . يحصِّل منا المحصِّل بقدر ما بذل من وقته وجهده ، بعد توفيق الله تعالى . لكن أين ذلك الجيل من جيل ضَغْطَةِ الزِّرّ ، والكتابِ الالكتروني، والبحث السريع . لقد عرفنا بإدراك العصرَينِ ومعرفةِ الزمانَينِ معنى أن تصل للمعلومة بكلل الجسد وسهر الليالي .. وأن تصل هي إليك ، عرفنا معنى أن تكتب حتى تتورّمَ أناملُك بجلدةٍ يابسةٍ كجلدة القدم من كثرة الكتابة ، وحتى تجفَّ أحبارُ أقلامِك وتنفدَ أوراقُ دفاترك .. ومعنى

أن تكتب على شاشةٍ كما شئتَ في شيء يسمونه ملفًّا ، لا تحتاج فيه إلى تبييض ما سَوَّدتَ ، ولا إلى كتابة حروف ما تَنقُلُ ، بل تقصُّ وتُلصق !! عرفنا باختلاف الحالين بعض ما كان يعانيه علماؤنا الأوائل ، قبل عصرنا الصناعي : عصر الكهرباء والمواصلات وتيسر الحياة . فلئن كانت سنواتٌ معدودة أحدثت كل ذلك الفرق ، فكيف بما أحدثته الثورة الصناعية الثانية قبل نحو مائة وخمسين عاما من الفرق الكبير بين حال العلم والتعلم قبل ذلك !

أقول ذلك معتذرًا عن تقصيرٍ ما أمكنني تتميمُه حينها ، إن فاتني اليوم ، فلربما كان ذلك التقصيرُ في تلك الفترة هو جُهدَ المجِدّ وغايةَ ما يقدر عليه المجتهد ، وهو اليوم طُعمة الكُسالى ولُقمة الفارغين !

وأعلم أن العذر تامًّا لا ينبسط لي ؛ لكن بعض العذر يكفيني عن كُلٍّ ، وجانبُ إحسانٍ قد يستر عورة الخلل ، عند من طابت نفسُه وزَكَتْ ، ورضي من العباد ما يرضاه من نفسه!

فإلى هذا الشرح الغريب في قصته وحاله معي ، أترك القارئ راجيًا أن يجد فيه متعةَ القصص الغرامية ، لكنه غرام العلم ! وأي علم ؟! إنه علم الحديث ، الذي قال فيه القائل مُوَرِّيًا:

غرامي (صحيحٌ) والرجا فيك (مُعضلُ) | وحُزني ودمعي (مُرسلٌ) و(مسلسلُ)

وصبريَ عنكم يشهدُ العقلُ أنه | (ضعيفٌ) و(متروكٌ) وذُلّيَ أجملُ

تنبيه :

هذا .. وقد رأيت بعد أن راجعتُ مبحث الحديث (الصحيح)، وبعد أن بلغ ما يَصْلُحُ به أن يخرج في مجلّدٍ منفرد ، بأن يُطبع ويُنشر منفردًا ، ثم يُتمَّمُ بقية الشرح : شيئًا فشيئًا ، حتى يخرج كاملا بما قد يصل إليه من المجلدات . وذلك تعجيلا في تلبية رغبات طُلّاب العلم ، حتى لا تتأخر مطالعتهم للكتاب الذي طالما كانوا عليه حريصين (بحمد الله)! ومبادرةَ ما يُستطاع

من العمل، قبل حلول الأجل أو صوارفِ القضاء والقدر .

فإلى هذا الشرح الكبير الذي أسميتُه بـ(التكميل والإيضاح لمقاصد كتاب ابن الصلاح)؛ لأنه ليس مجرد شرح ، ولا ينحصر فيما يذكره ابنُ الصلاح رحمه الله من المسائل . بل هو شرحٌ وتكميلٌ ، هو بيان وتتميم .

فالله أسأل أن يعمِّم به النفع ، وأن يُعظِّم به الأجر ، وأن يُجزل به الذخر ليوم المعاد !

وكتب

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

في ليلة السبت ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٤٤٢هـ